# الصحيفة السودانية الأولى واتجاه المقال فيها

عبدالله حمدنا الله

## مدخـــــل

يذهب مؤرخو الصحافة السودانية الى أنّ الصحافة ظهرت في السودان وطنية في أول أمرها حيث ظهرت "الغازيتة السودانية" في سنة ١٨٩٩م، ثم تبعتها الصحافة الشعبية حين حصل أصحاب جريدة "المقطم" في مصر على تصديق لاصدار صحيفة في السودان أسموها "السودان" وقد صدرت في سنة ١٩٠٣.

وقد جاءت لي خلاف ما ذهب اليه مؤرخو الصحافة السودانية إذ بأيدينا صحيفة يرجع تاريخ إصدارها الى ما قبل الحكم الثنائي سنة ١٨٩٨م، ولكن لا نقطع بأنّها أول صحيفة سودانية، فإبراهيم فوزي يحدّثنا عن صحيفة يومية كان يصدرها غردون أثناء حصار الخرطوم.(١) لكنّه لا يورد لنا اسمها ولا يوضح لنا معلومات عنها، وربّما كانت منشورا يوميا يعلّق على الأماكن العامّة كالمنشورات التي أورد لنا نعوم شقير مثالا منها.(٢)

ومهما يكن من أمر فإنّ أقدم صحيفة سودانية بأيدينا تلك التي أصدرها محمود القباني الملقب بـ "حال بئس" وأسماها "السودان" وهي غير الصحيفة التي أصدرها أصحاب المقطم بهذا الاسم، وقد أصدرها في العشرة الثانية من يوليو سنة ١٨٩٨م، قبيل معركة كرري بخمسة وأربعين يوما،(٣) ثم عطّلها صاحبها وأعاد إصدارها في ١٨ من أبريل سنة ١٩٠٣م. والأعداد الأولى من هذه الصحيفة لم نعثر عليها، ولكن الأعداد الأخيرة منها موجودة في دار الكتب المصرية، ويبدو أنّ عمرها كان قصيرا إذ لم نجد منها سوى تسعة عشر عددا تاريخ آخرها يوم الأحد ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٠٣م.

وفي دار الكتب المصرية صحيفة اسمها "السودان المصري" لصاحبها عبد الوهاب عثمان بركات التونسي. حاولت الاطلاع عليها لكن لم أوفق، ويغلب على ظنّي أن تكون هي الأعداد الأولى من صحيفة محمود القبّاني قبل أن يعطيها صاحبها، وقبل أن يغيّر سياستها من الموالاة لمصر الى الموالاة للانجيز، وتدفعني الى هذا الظن جملة أسباب، منها:-

(١) الأعداد الموجودة من هذه الصحيفة تبتدىء من ٢١ يوليو سنة ١٨٩٨م وتنتهى فى أكتوبر من العام نفسه، وهذا التاريخ يوافق تاريخ إصدار محمود القبانى لصحيفته فى المرّة الأولى.

(٢) إنّه من غير الممكن أن تصدر صحيفة قبل الفتح تدعو الى انفراد الانجليز بالسيادة على السودان، إذ لم يكن الانجليز - فضلا عن الخديوى - يسمحون بإصدار مثل هذه الصحيفة ونواياهم للانفراد بالسودان لم تكن قد أسفرت عن وجهها، وكانت تحول دون ذلك موانع كثيرة منها: أنّ حملة الفتح كانت باسم مصر التى تتولّى تمويلها، ومنها أنّ الدول الأوربية - خاصة فرنسا - التى توغلت داخل السودان ووصلت "فشودة" لم تكن لتقبل بالسيادة الانجليزية على السودان ولا حجة لانجلترا إلاّ الادّعاء بالسيادة لمصر التى كانت تحكم السودان قبل الثورة المهدية.

وإزاء هذه الأسباب صدرت الصحيفة فى عهدها الأول تحت اسم "السودان المصرى" داعية لمصر، فلمّا اطمأنّ الانجليز وبدأوا يمهدون لأطماعهم فى حكم السودان سمحوا للصحيفة أن تصدر فى عهدها الثانى موالية لهم ومهاجمة للسياسة المصرية، وكان أن اكتفت باسم "السودان" بعد أن كان اسمها "السودان المصرى"، إذ أنّ صاحبها نزع عن السودان هذه الصفة، بل اجتهد من خلال صحيفته فى قطع كل الأواصر التى تربط السودان بمصر.

(٣) كان محمود القبانى ينشر رسائل فى صحيفة "الأهرام" تحت عنوان "السودان المصرى والانجليزى" وقد جمعت هذه الرسائل وطبعت بمطبعة الأهرام بالاسكندرية سنة ١٨٩٦م، وهو فى هذه المقالات يسمّى السودان باسم "السودان المصرى"، وفيها يدافع عن مصر، ويهاجم الانجليز بقوّة وعنف، فإذا صدرت صحيفة قريبة من هذا التاريخ تحمل نفس اسم عنوان رسائله، وإنّها - كما يؤخذ من اسمها - تدين بنفس المفهوم لعلاقة السودان بمصر، فليس غريبا أن يكون وراء هذه الصحيفة الرجل نفسه قبل أن يتحوّل من فكرته الأولى الى فكرته الثانية.

وليس غريبا هذا التحوّل من محمود القبانى إذ أنّه من خلال كتاباته فى صحيفة "السودان" وفى غيرها يبدو متأرجحا

بين الرأى وضده ، كما أنّه غير صادق فى أخباره ، أضف الى ذلك سلاطة لسانه وحدّة طبعه .

(٤) أمّا أن يكون اسم صاحب الصحيفة (عبد الوهاب عثمان بركات التونسى) فلا يبعد أن يكون محمود القبانى قد قصد بهذا الاسم التخفى كما أخفى اسمه ولقبه فى رسائله لصحيفة الأهرام التى نشرها بتوقيع "أحد أدباء مصر" وهذا التخفى فى الحالتين أملته حالة الحذر حتى لا ينال أهله مكروه من الخليفة عبد الله .

ومهما يكن من أمر، ومالم يثبت البحث شيئا آخر، فإنّ صحيفة "السودان" لمحمود القبانى تظل أقدم صحيفة سودانية تحت أيدينا ، والذين ذهبوا الى أنّ صحيفة "السودان" التى أصدرها "المقطم" هى الصحيفة السودانية الأولى ليسوا على شىء من الصواب ، كما أنّهم ليسوا على شىء من الصواب أيضا أولئك الذين ذهبوا الى أنّ "حضارة السودان" هى أول صحيفة سودانية ظهرت خالصة الملكية والتحرير والقرّاء، وأنّ حسين شريف هو الصحفى السودانى الأول،(٤) وإن كان فضل حسين شريف على الصحافة السودانية غير منكور، ودوره فى تطوّر الحركة الفكرية فى السودان بما أبدى من آراء وما أثار من خلافات لا يحتاج الى برهان.

وعن طريق مصر عرف السودان صحيفته الأولى، إذ اتخذ محمود القبانى من مطبعة التوفيق فى شارع "كلوت بك" مقرّا لادارة صحيفته ولكنها كانت صحيفة سودانية خالصة فى ملكيتها ، وفى تحريرها ، وفى كتّابها ،وأيضا فى موضوعاتها ، لا تهتم بغير السودان إلاّ بما يدخل تحت باب الثقافة العامّة وفى أضيق الحدود، وصدورها فى القاهرة اقتضته ضرورة موّقتة ويذكر صاحبها أنّه أصدرها فى القاهرة بسبب الأحكام العرفية فى الخرطوم وأنّه سيصدرها فى الخرطوم حين تزال عنه الأحكام العرفية . ونجد أسماء بعض كتّابها من السودانيين مثل عبد الله الطيب نور الدائم ، كما كان لها مراسلون فى مدن السودان المختلفة . ثم إنّ صاحبها إذا كان مصرى الأصول، إلاّ أنّ أسرته استقرّت فى السودان وانقطعت صلتها بمصر تماما ، ولكل ذلك فإنّه غير صحيح ما ذهب اليه محجوب محمد صالح من أنّ الصحيفة السودانية الأولى

ولدت "وثيقة الصلة بالحكم البريطانى أجنبية الملكية وأجنبية التحرير أجنبية القرّاء"،[٥] إذ كان حكمه هذا بالقياس الى صحيفة "السودان" التى أصدرها أصحاب المقطم، أمّا صحيفة القبانى فقد كانت وثيقة الصلة بالحكم البريطانى، ولكنها سودانية التحرير، سودانية الملكية، سودانية القرّاء.

لم تعمّر صحيفة القبانى طويلا، ويبدو أنّ قصر عمرها يرجع الى اتجاهاتها المشبوهة، ومحاربتها مصر، ولكل العناصر المؤثرة فى السودان كالمهدية ورجال الطرق الصوفية عامّة والطريقة الميرغنية خاصة، ومحاربة العلماء الذين استعانت بهم الحكومة فى القضاء الشرعى، ومحاربة تركيا.

كل تلك الأسباب أضف اليها أنّ صاحبها كان لسنا أدّت الى انصراف الناس عنها دون أن تترك أثرا، بل إنّ التاريخ أهملها كما أهمل صاحبها الذى عمّر طويلا ولم يسمع منه معاصروه شيئا عن صحيفته.

## الصحفى السودانى الأول

محمود القبانى من أسرة ذات أصول مصرية، ولد فى العصر التركى ودرس دراسة مدنية فى مدرسة الخرطوم الأميرية، التى أسّسها رفاعة رافع الطهطاوى، وفيها تعلّم اللغة الفرنسية، ويذكر فى مذكراته أسماء عدد من الذين رافقوه فى المدرسة ويرسم بعضا من نظامها التربوى.

بدأ اتصاله بالصحف مبكرا فقرأ "الأهرام" و"الوطن" و"الجوائب" وبدأ اهتمامه بالسياسة يظهر من حداثة سنّه.[٦] وفى عهد المهدية فرّ الى مصر واتصل بالطبقة المستنيرة فيها، حيث صحب محمد عبده، وقرأ عليه وأكمل قراءة "الجوائب من مجموعة على يوسف، وكانت صلات بسعد زغلول وكثير من المشتغلين بالسياسة المصرية، وكتب فى الصحف المصرية، ومن كتاباته فى "الأهرام" أصدر كتابه "السودان المصرى الانجليزى".[٧]

أصهرت أسرة القبانى الى عدد من الأسر السودانية، إذ تزوّج المهدى أحد أخواته، وتزوّج الشيخ محمد شريف نور الدائم أخته الأخرى وله منها أبناء.

وعمّر طويلا، وتوفى فى أمدرمان بعد الحرب العظمى الثانية

واشتهر بلقب "حال بئس". وكان واسع الاطلاع، ملمّا بأحوال السياسة فى عصره أحسن الالمام، وليس بين معاصريه من السودانيين - فيمن اطلعت عليهم - من يدانيه فى اتساع أفقه وغزارة معلوماته وتنوّعها.

## اتجاهات المقال فى صحيفة "السودان"

صحيفة "السودان" صحيفة رأى قبل أن تكون صحيفة خبر، فكان طبيعيا أن تلجأ الى كتابة المقال تعبيرا عن المبادىء التى تدعو اليها. وتصرّح الجريدة بسياستها فى أول أعدادها فتقول "ولمّا كانت الغاية تبرّر الواسطة فإنّ غايتى خدمة قومى بما لا يخرج عن رغائب الاصلاح إذ نعد أنفسنا اليوم من رعايا جلالة الملك إدورد السابع يحكمنا موظف سامى من خيرة رجاله مستمدا أنوار الاصلاح والمدنية من ذلك الوزير الخطير والمصلح الكبير صاحب الفخامة اللّورد كرومر الذى لا نحتاج الى تعريفه بأكثر من هذا. وفى يقين الكل أنّ الزمن الذى تصبح فيه بلادنا تتيه على الديار المصرية عمرانا ومدنية ليس ببعيد مادام هذا مشرفا على حكومتنا يتجشم مشاق الأسفار كل عام متفقدا البلاد مراقبا سير الأعمال يقف مصغيا لكل شاك من السكان لا فرق بين كبير وصغير كما كان شأن المأسوف عليه الجنرال غردون باشا إبّان ولايته علينا حتى الأنفاس الأخيرة من حياته بين ظهرانينا". (٨)

والمقال الغالب فى صحيفة السودان هو المقال السياسى، ولم تهتم بالمقال الأدبى، وجاء المقال الاجتماعى معالجا بعض الموضوعات الاجتماعية التى يشغل أكثرها أذهان المصلحين الاجتماعيين فى مصر مثل قضية المرأة والتعليم وتجارة الرقيق. (٩)

ونقف عند المقال السياسى لأنّه يبيّن بداية التفكير فى المسألة السودانية التى قدّر لها أن تكون محور الحركة الوطنية السودانية قبل أن تحسم بالاستقلال التام.

## المقال السياسى

يعد محمود القبانى أول من نادى بفكرة السودان للسودانيين إذ أوقف صحيفته "السودان" بعد إصدارها للمرّة الثانية على خدمة هذا المبدأ كما جاء فى افتتاحية عددها الأول. ويرى أنّ المبدأ

قديم وضع أساسه الجنرال غردون فى أوائل سنة ١٨٨٤م،[١٠] وأتمّ دعائمه وبنيانه البطلان اللّورد كتشنر والسير ونجت والمشرف عليه اللّورد كرومر والمدافع عنه المستر كرى مدير معارفنا وكل الأمّة الانجليزية، أمّنا الحنونة ومربيتنا الشفوقة.[١١] ولزمه وفق دعوته أن يحدّد موقفه من أطراف كثيرة لها مصالح متعارضة فى السودان، وفى مقدمة تلك الأطراف دولتا الحكم الثنائى، ثم المهدية فى داخل السودان التى كانت لها دولة قضت عليها جيوش الاحتلال، وتركيا مقر الخلافة، وبعد ذلك كلّه الدول الاستعمارية التى كانت قد توغلت فى السودان أو وقفت عند حدوده وأخصّها فرنسا وبلجيكا. أمّا موقفه من انجلترا فيتبعها تبعية ذليلة، إذ يحدّد علاقة السودان معها بعلاقة "الرعية مع الراعى" الذى لا غنى لها عنه وهى أكبر علاقة تجمع الأمم وتربط الشعوب.[١٢] وأنّه غير خاف أنّ الأمّة السودانية كطفلة بين يدى أمّها، لا تعرف الصالح من الطالح بل ربما استوت لديها الجمرة والتمرة. ومن أمثال العوام فى السودان قولهم "الغشيم فى ذمّة الفهيم"، أى الذى يعرف مسئول عن خطأ من لا يعرف.[١٣]

ولكن علاقة الراعى مع الرعية لم يكن مسلّما بها عند السودانيين إذ كانوا ينفرون من الانجليز دينا، ولأنّ السودان يتبع خديوى مصر، وبذلك واجه كتشنر القائد الفرنسى مارشان عند التقاء جيشيهما فى فشودة. فكان على محمود القبانى أن يتصدّى لهذه الأفكار مؤكدا أنّ السودانيين لا يعترفون بتبعيتهم الى خديوى مصر، "وأنّ الكثيرين يجهلون أن قومنا لم يخضعوا الى الفاتح العظيم اللّورد كتشنر باشا إلاّ على اعتقاد أنّ المالك عليهم هو جلالة الملكة فكتوريا، كما قال لهم غردون باشا فى سنة ١٨٨٤م، وما رفعت راية الانجليز على ربوعنا وأعلنت تابعيتنا لها إلاّ تبعا لأميالنا وتمسكنا بتصريحات الجنرال غردون.[١٤]

ثم إنّ الحكومة الانجليزية فى السودان إسلامية من جميع الوجوه وأنّها "سائرة فى طريق الكلمة العسجدية بل الدرّة اللّؤلؤية التى لفظها فم مصلح وادى النيل فخامة اللّورد كرومر الذى قال لنا على رؤوس الأشهاد وعقب فتح أمدرمان أنّ حكومة السودان ستصير إسلامية من جميع الوجوه".[١٥]

ويمضى القبانى مدافعا عن الادارة الانجليزية فى السودان،

فينكر أن تكون عرفية، وكأنّه نسى ما جاء فى مقدمة العدد الأول من صحيفته حيث قال "بدأ لى بعد فتح أمدرمان تعطيلها (أى صحيفته) الى أجل غير مسمّى حتى أتمكن من إعادة إصدارها فى نفس وطنى الخرطوم حينما تتقلّص من بلاده الأحكام العرفية وتباح فيه حرية المطبوعات".(١٦)

وفى موضع آخر يثبت العدل للادارة الانجليزية، وينكر أن تكون غير ذلك، ويدافع عن أعمالها كلّها، وينصّب من نفسه محاميا ماهرا ضد وطنه، وفى آخر عدد وقع بأيدينا من الصحيفة يعترف "إنّنى ما طرقت باب بحث من الذى خضت فيه منذ نشأة هذه الجريدة إلاّ جوابا لشىء طرق أذنى، مثال ذلك أنّنى قلت أنّ عدد المسلمين الذين تحت حكم دولتنا البريطانية يبلغون ١٥٠ مليونا أى نصف عدد مجموعهم، ليفهم السودانيون عكس وشاية سمعت بانتشارها بينهم".(١٧)

وإذا كان موقفه من الانجليز واضحا فى الموالاة، فإنّ موقفه من مصر واضح العداء. فهو يرفض سيادتها على السودان، ويطالب بنزع علمها منه لأنّه من أكبر العار وأعظم الشنار أن تسود علينا ولاية عثمانية تدفع جزية الى دولة نحن أكثر نفوسا منها وأوسع مملكة وأنظم حكومة".(١٨)

ويتحدث عن علاقة مصر بالسودان فينفى أن يكون لمصر حق فى السودان بمقتضى الفتح أو المعاهدات لأنّ سيادتها على السودان قد انتهت بقيام الثورة المهدية التى عبّر السودانيون من خلالها عن بغضهم للموظف المصرى الذى كان أسوأ واسطة بين المحكوم والحاكم.(١٩)

وأمّا ما يقال عن المصالح المشتركة بين مصر والسودان فإنّه لا سبيل للتوفيق بينهما، ويخطىء اللّورد كرومر إذا حاول ذلك لأنّه "يطمع فى غير مطمع، ويصوّت فى غير مسمع، ذلك أنّ ما تأصّل فى أفئدتنا منهم من الأحقاد والاحن التى لم يكن من سبب لها غير ما عاملونا به من الحيف والخسف اللذين حتما علينا الدخول فى مضمار الثورة المهدية".(٢٠)

وبعد أن يأتى على الحجج التى يراها تدعم موقف مصر فى السودان وتجعل موقف الانجليز واهنا، ويفنّدها جميعا، يذكر أنّ علاقة السودان بمصر لا تعدو شأنين، "أولهما أنّ مصر تدفع لنا كل عام إعانة قدرها ٣٠٠ ألف جنيه، تشتمنا جرائدها وتعترض بكل جنيه ثلاثمائة ألف مرّة حتى

بات العقلاء منّا يودّون من وكيل دولتنا اللّورد كرومر أن يترك هذه الاعانة ويطلق أيدينا لننتفع بالنيل الذى يمر على بلادنا وينبع منها ونحن أولى باحتكار منفعته لنا".(٢١)

والشأن الآخر يتمثل فى الوظائف فى السودان، وأنّ المصريين "يريدون أن يحتكروا وظائف حكومتنا لشبّانهم، وبالطبع يريدون بعد ذلك أن يجرى فى بلادنا كل ما يجرى فى بلادهم فتوجد بيننا التجارة بالرتب والوساطات ويصبح لهم بين أيدينا وظهرانينا أملاك وعقارات".(٢٢)

ولم يكن بدعا أن يطالب القبانى بقطع كل ما يربط السودان بمصر، وأن يبعد الموظفين المصريين عن السودان، ويستبدلوا بموظفين انجليز، ويجب أن تمنع الصحف المصرية من دخول السودان، وأن يتعلّم السودانيون فى المدارس السودانية التى يجب أن توظف لهذا الهدف. ويتحدث عن هجرة المصريين الى السودان ويضع لها شروطا. وصفوة القول أنّه كان عنيفا فى حرب مصر، لا يرى حبلا موصولا لها إلاّ سعى لقطعه، وربطه من جديد مع المصالح الانجليزية التى كان سافرا فى موالاتها سفورا يصل حد الخنوع.

ولم يقف القبانى بالهجوم على مصر وحدها، بل زاد عليها فرنسا وبلجيكا، غير أنّه لم يكن عنيفا عليهما عنفه على تركيا التى خصّص لها مقالات أنكر فيها صحّة خلافة الترك، بل أنكر صحّة الخلافة نفسها إذ كان الغرض منها "جمع شتات العرب وتالبفهم على المدنية التى لا مفرّ لها من الحضر وعمرانه القاضى بإيجاد الوازع الذى لا تقوم قائمته ولا تستقيم أموره بدونه".(٢٣)

وقد تحقق هذا الغرض فى زمن الخلافة الرّاشدة، وبعدها ذهبت قيود الخلافة الأولى وصارت الأمّة الاسلامية بما وصلت من المدنية تقيم الحاكم وتشكل له ما يتبع وظيفته من لوازمها بدون صعوبة كما كان الحال فى العهد الأول. وبالجملة إنّ الحال لم يكن كما كان عليه حتى أصبح معنى الخلافة لا يقصد به غير إقامة الحكومة التى لا يتأتى للعمران البشرى الاستغناء عنها.(٢٤) ويخلص من ذلك الى " أنّ السودانيين لا يريدون غير حكومة تسير بهم فى سبيل المدنية والعمران، ولا تعترض حرية الأديان. وقد نالوا بغيتهم هذه من حكومتهم

الحاضرة".(٢٥) أمّا تركيا فإنّ "الحقيقة التى لا يمترى اثنان فى صحتها أنّ الفضل فى بقاء هذه الدولة حتى الآن هو عدم اتفاق دولة أوربا على قسمة أسلابها وتوزيع بلادها".(٢٦)

ونلحظ أنّ القبانى فى تعريفه للخلافة ومحاولة نزع الصفة الدينية عنها، والباسها ثوبا مدنيا فى شكل الحكومة، قد سبق على عبد الرازق عشرين عاما، حيث ذهب على عبد الرازق الى نفس المفهوم فى كتابه الاسلام وأصول الحكم الذى أثار ضجة حين صدر.

ويتخذ القبانى نفس الموقف المعارض من العناصر المؤثرة فى المجتمع السودانى، وفى طليعة تلك العناصر الثورة المهدية، والعلماء الذين استعانت بهم الحكومة فى بعض الوظائف، والطرق الصوفية عامّة والميرغنية خاصّة.

## دوافع القبانى

بعد أن حدّدنا دعوة القبانى، وموقفه، نقف الآن لنرى ماذا يقصد بدعوة السودان للسودانيين؟

بدهى أنّه لا يقصد بذلك خروج الانجليز وترك السودان لأهله، وهو المحامى عن سيادتهم على السودان. كما أنّه لا يقصد من عدائه لمصر وانفراد انجلترا بحكم السودان منطق الاعتماد على الشريك الأقوى ليعد السودان خلال فترة معلومة لحكم نفسه.

ماذا يقصد إذا ؟

نراه لا يفصل مقصده، بل يحدثنا أنّ المبدأ قديم وضع أساسه الجنرال غردون باشا فى خطبته التى ألقاها فى الخرطوم سنة ١٨٨٤م، وبعد رجوعنا الى تلك الخطبة وجدنا غردون يقول: "وقد صار فصل السودان عن مصر فصلا تامّا وفوّض الىّ الحكم المطلق. وعزمت منذ الآن أن لا يكون أعضاء حكومتى إلاّ من الوطنيين حيث أنّنى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه".(٢٧)

ويؤخذ من خطبة غردون أنّه لا يرمى بمبدأ فصل السودان إعطاء أهله السيادة على بلادهم، وإنّما يرمى به مشاركتهم فى الادارة تحت سلطته. ويحدثنا الذين اطّلعوا على مذكراته أنّه "كان فى قرارة نفسه يعتقد بوجوب فصله - أى السودان - عن مصر ويود لو أنّ الظروف السياسية كانت تسمح بضمّه الى أملاك التاج البريطانى".(٢٨)

ومن كتابات القبانى نذهب الى أنّ هذا عين ما يرمى اليه، وهو مشاركة السودانيين فى الادارة من خلال الوظائف التى يصلحون لها، وأخصها القضاء الشرعى الذى كان السودانيون مؤهلين له بحكم دراستهم الأزهرية. وقد تعرّض الشيخ محمد شاكر، وصهره الشيخ محمد هارون اللذين كانا يعملان فى القضاء الشرعى فى السودان الى حملاته الضارية التى كان يدعو فيها الى "السودان للسودانيين لا للشيخ شاكر والمصريين".

وكان حديثه منصبّا على الوظائف الادارية ،ولم يتحدث عن السيادة أو منصب الحاكم العام، إذ أنّه يسلّم بهما للانجليز ولا ينازعهم فيهما، أو يطالب بإحلال سودانى فى منصب الحاكم العام، ولذا ظلّ المبدأ عنده إداريا وليس سياسيا.

يحق لنا أن نسأل بعد ذلك هل كان القبانى مخلصا فى دعوته ؟ أم كان يهدف من ورائها الى شىء فى نفسه، وإذا كان الأمر كذلك فما هى دوافعه ؟

فى البدء يحدثنا القبانى بأنّه اتهم من معاصريه بالخيانة، والنفاق والتملّق، ويدافع عن نفسه بأنّه يقول الحق ويسعى لخدمة وطنه وفق البيعة التى فى عنقه للوالى، وإذا كانت تلك المعايير التى برهن بها على صحّة موقفه، وهى الصدق وعدم النفاق، وسعيه لخدمة السودان، ووجوب طاعة الحاكم، فهل صحيح أنّها الدوافع التى دفعته لاعتناق الفكرة ؟

قبل أن نجيب على السؤال نقول أنّه يبدو غريبا أن تصدر هذه الفكرة من شخص من أصول مصرية، هاجرت أسرته الى السودان من قريب، ثم هو مصرى الثقافة، وعاش مع المصريين فى الخرطوم واحدا منهم، وفرّ من المهدية الى مصر حيث عاش بين صفوتها، الأمر الذى يدفعنا الى عدم التصديق فى صدقه، وقصده خدمة الأمّة السودانية، فضلا عن عدم تصديقنا منذ البداية بأنّ بيعة الحاكم تلزمه بالطاعة، فهو فى مقالاته عن الخلافة نزع عنها الصفة الدينية وجعلها الحكومة التى تساعد على العمران، وعلى هذا رفض الخلافة الاسلامية فى تركيا.

ثم لماذا فرّ من المهدية وحاربها ؟ أليست فى عنقه بيعة لها؟ وهى حكومة مسلمة سعت لاقامة دولة إسلامية بالصورة التى أدّى اليها

اجتهادها. ثم أليست فى عنقه بيعة لخديوى مصر؟ فلماذا سعى الى نقض بيعته وهو الطرف المسلم من حكومتى العهد الثنائى، ويعترف بالانجليز الذين لا يتصفون بهذه الصفة؟

إنّ الحجة لا تستقيم له من هذا الوجه، ويبدو تهافتها من أول أمرها، وقد أوقعه فى سوء الحجة عدم صدقه، وعدم ارادته خدمة الأمّة السودانية، وهما السببان اللذان ساقهما.

ثم إنّ الدعوة لم تلبث فى ذهنه إلاّ بعض عام، وهو ما اصطحبه صحيفته التى حملت دعوته، ثم هجرها بقية عمره الذى امتد الى الحرب العالمية الثانية. كما أنّه لم يكن مؤمنا بها قدر صحيفته، وتسعفنا على ذلك عدّة شواهد من كتاباته التى سبقناها ابتداء من كتابه "السودان المصرى والانجليزى" الذى نشر مقالاته متفرّقة فى صحيفة "الأهرام" وطبع سنة ١٨٩٦م حتى كتاباته لمذكراته فى جريدة "حضارة السودان" المندمجة فيها جريدة "ملتقى النهرين".

فقد كان القبانى يسمّى السودان بـ"السودان المصرى"، ويهاجم فكرة إخلاء السودان، ويذكر أنّ الناس صاروا وكأنّ على رؤوسهم الطير حين فاه غردون بهذا الاخلاء فى الخرطوم،[٢٩] أضف الى ذلك أنّ صحيفته فى أول أمرها كانت تسمّى "السودان المصرى" وكان فيها الى وجهة النظر المصرية التى عاد فأنكرها، وبرّر الجديد بقوله "وعليه فقد عرفنا الحق من الباطل، وميّزنا بين الغث والثمين، فنحن أحرار قد تبدّدت من عقولنا سحائب الوهم الكاذب وتلاشت من أفئدتنا تأثيرات الضلال فعرفنا الحق فاتبعناه ونسأل الله أن يمدّنا بعنايته وتوفيقه".[٣٠]

ويبدو أنّه عاد الى موقفه من حب مصر بعد توقف صحيفته، وندم على موادّة الانجليز، وعاش بقية حياته لا يتحدث عن صحيفته بين الناس بل لم يشر اليها فى مذكراته، وكأنّه أراد أن ينساها الناس بعد أن نسيها صاحبها. فعاشت فى طى النسيان، ولم يذكرها مؤرخو الصحافة السودانية. ثم إنّه فى مذكراته تحدّث عن مصر بوفاء وعاده الحنين الى رفقة المدرسة ومجلسه مع محمد عبده وغيره من المصريين، بينما لم يحمل للانجليز من الود ما وجدناه فى صحيفته.

إذا تأكد عدم صدق القبانى وإخلاصه فى خدمة الأمّة السودانية

فما هى الدوافع التى ساقته لاعتناق المبدأ؟

لا ريب أنّه ابتغى من وراء ذلك نفعا عاجلا، ربما يكون مالا، وقد أثر عنه ابتغاء النفع من هذا الوجه، إذ يحدثنا أحد معاصريه بأنّ سليمان منديل حين أصدر "الجريدة التجارية" شاءت الأقدار" أن تقع فى طريقه الصحافى السودانى العجوز الشيخ محمود القبانى ليستغلّه أشنع استغلال، فكان كلّما تفاقم الخلاف على قلّة الأجر ونظام الشغل (بالحتة) يتركها الأستاذ القبانى فيتعلّق بأول كاتب يصادفه كى لا يتأخر العدد عن موعد صدوره الأسبوعى مع أنّه ورقتان فقط احداهما للاعلانات، وفى تلك الأثناء يجهد جهده ليصالح المحرّر الغاضب بزيادة ضئيلة مضحكة".(٣١)

وربما كان دافعه أكبر من المال، فقد كان يأمل أن يتولّى منصبا رفيعا يشبع فى نفسه حب السلطة، وهو حين أرجع مبدأ السودان للسودانيين الى غردون يعلم أنّ غردون قرّر تعيين السودانيين فى حكومته، وأنّه عيّن أحمد عوض الكريم أبو سن محافظا للخرطوم، فما يمنع أن يعيّن السودانيون فى الحكومة الجديدة؟ وأنّه لا تنقصه الكفاءة فهو من أكثر السودانيين تعليما وسعة أفق،ودراية بالأحوال السياسية من حوله، ولكن ينقصه الولاء، وماضيه القريب يقف شاهدا على عداء الانجليز، فما عليه لو نسى هذا الماضى وسعى لمحوه، وما عليه لو دافع عن الانجليز، واشتط فى الدفاع، وما عليه لو أصدر صحيفته مرّة أخرى مغايرة لأفكارها الأولى، ينكر آخرها أولها، وأن يلبس ثوبا جديدا لا يناسبه بحكم جذوره ونشأته وثقافته.

ولمّا لم ينخدع به الانجليز، ويولوه ما أراد، عطّل صحيفته وكره أن يتحدث عنها، أو تنسب اليه،وأهملها فى مذكراته، وآثر أن يعرفه الناس من خلال اشتغاله بالصحافة المصرية.

## موازنة بين القبانى وحسين شريف

هل هناك تشابه بين الدعوة الى السودان للسودانيين الداعية الى انفراد الانجليز بحكم السودان دون المصريين عند كلّ من القبانى وحسين شريف ؟

يتفق القبانى وحسين شريف فى بعض الأفكار الرئيسية وطريقة العرض

ويختلفان فى الدوافع والأهداف النهائية. فهما يتفقان فى انفراد انجلترا بحكم السودان دون مصر، ويختلفان فى الهدف من الانفراد، فبينما يراه القبانى هدفا فى ذاته يفخر به السودانيون، يراه حسين شريف وسيلة لاعداد السودانيين لحكم بلادهم يعطى بعدها السودان استقلاله، ولهذا أخذت دعوة حسين شريف شكلا سياسيا على حين اقتصرت دعوة القبانى على الوظائف الادارية.

ويتفقان أيضا على ضرورة التخلّص من مصر، ويختلفان فى نوع العلاقة معها، فالقبانى يدعو الى قطع كل علاقة قائمة، وأنّه مضى الزمن الذى كان السودان فيه عبدا لمصر، ويتطرّف فى العداء فيدعو الى قطع ماء النيل عنها أو تدفع عنه الجزية، بل يتطرّف أكثر حين يدعو الى حربها.

أمّا حسين شريف فليس له عداء مع مصر، بل يدعو الى التعاون بين القطرين ويتحاشى أن يرد على الصحف المصرية التى حملت على زعماء السودان من أعضاء وفد التهنئة الذى زار بريطانيا فى ١٩١٩م يبارك لها نصرها فى الحرب العالمية الأولى. فإن اضطرّ عاتب فى رفق، ويدعو الى دفن صفحات الماضى التى لا تساعد على الوفاق، ولا يفتأ يذكر أنّ المصريين اخواننا نأخذ عنهم ونستعين بهم ونحافظ على مصلحتهم فى النيل ونتبادل العواطف والعلاقات الحسنة ومقتضيات الجوار ولوازم الاخاء.(٣٣)

ويتفقان فى بعض طرق عرض القضية، إذ أنّ كليهما تعرّض لها من ناحية تاريخية وأخرى دينية. ويختلفان فى دوافع الفكرة. فالقبانى ابتغى من ورائها مصلحة شخصية ولم يكن مؤمنا بها فى قرارة نفسه، ولم يتمسك بها بعد أن قصّر عن ادراك بغيته عن طريقها، وفى سبيل غاياته كان ضعيفا لا يتورّع عن شىء بوازع من وطنية أو دين. أمّا حسين شريف فكان مخلصا فى دعوته، ولم يطلب من ورائها مصلحة ذاتية ولم يؤثر عنه ابتغاء المنفعة من هذا الوجه، وكان هدفه خدمة بلاده وفق اجتهاده، فعاش موفور الكرامة بين الجميع." وعرف الناس قدره بعد مماته، وفقد الكتّاب فيه صديقا خليقا بالذكر ومناظرا قوى الحجة مؤدب العبارة".(٣٤)

ويختلفان بعد فى سعة الصدر، والحياء. فالقبانى سريع الغضب سليط اللّسان، لا يردعه حياء عن استعمال الألفاظ التى يترفع عنها

العقلاء. وحسين شريف واسع الصدر، لا يفسد الرأى عنده للود قضية، مؤدب العبارة، وإن غضب أشار ولم يطعن، وإن هوجم التمس عذرا لخصمه، ويرجع ذلك لصدقه، فالمقلد أكثر تعصبا من الأصيل، لأنه لا ينطلق من رؤية عاقلة، وإنما يندفع فى الغالب عن عاطفة أو مصلحة.

الهوامش

* للتوسع فى الموضوع أنظر: عبد الله حمدنا الله، المقال فى السودان من ظهور الصحافة السودانية الى ظهور الصحافة اليومية"،رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، ١٩٨٢م.

(١) ابراهيم فوزى، السودان بين يدى غردون وكتشنر، الجزء الثانى، (القاهرة ١٣١٩هـ)، ص ٥١

(٢) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، (بيروت ١٩٦٧م) ص ٨٥٨

(٣) جريدة السودان "محمود القبانى"، ٢٢ يوليو ١٩٠٣م. "تاريخ الصحافة فى السودان"

(٤) سليمان كشة، الخرطوم، يونيو ١٩٦٧م، ص ١٦.
محجوب محمد صالح: الصحافة السودانية فى نصف قرن، قسم التأليف (الخرطوم ١٩٧١م) ص ٤٨.

(٥) نفسه، ص ٢٢.

(٦) محمود القبانى، "مذكرات محمود القبانى"،حضارة السودان (المندمجة فيها جريدة ملتقى النهرين) ٣٠ ديسمبر ١٩٣٤.

(٧) نفسه، ٦ مايو ١٩٣٥م.

(٨) جريدة السودان "محمود القبانى" ١، ١٠ محرم ١٣٢١هـ، ٨ أبريل ١٩٠٣م.

(٩) نفسه، العدد ١٩ صفر ١٣٢١هـ، والعدد ٧، ٢٩ صفر ١٣٢١هـ، ٢٤ مايو ١٩٠٣م.

(١٠) نفسه، العدد ١٤، ٢٢ يوليو ١٩٠٣م.

(١١) نفسه، العدد ٧، ٢٤ مايو ١٩٠٣م.

(١٢) نفسه، العدد ١٩، ٢٧ ستمبر ١٩٠٣م.

(١٣) نفسه ، العدد ١٩، ٢٧ سبتمبر ١٩٠٣م٠
(١٤) نفسه ، العدد ٧، ٢٤ مايو ١٩٠٣م٠
(١٥) نفسه ، العدد ٨، ٣ يوليو ١٩٠٣م٠
(١٦) نفسه ، العدد الأول، ١٨ أبريل ١٩٠٣م٠
(١٧) نفسه ، العدد ١٩، ٢٧ سبتمبر ١٩٠٣م٠
(١٨) نفسه ، العدد ٧، ٢٤ مايو ١٩٠٣م٠
(١٩) نفسه ، العدد ٣، ٢٦ أبريل ١٩٠٣م٠
(٢٠) نفسه ، العدد ٦، ١٧ مايو ١٩٠٣م٠
(٢١) نفسه ، العدد ٦، ١٧ مايو ١٩٠٣م٠
(٢٢) نفسه ، العدد ٦، ١٧ مايو ١٩٠٣م٠
(٢٣) نفسه ، العدد ١١، ٢٨ يونيو ١٩٠٣م٠
(٢٤) نفسه ، العدد ١١، ١٨ يونيو ١٩٠٣م٠
(٢٥) نفسه ، العدد ١١، ٢٨ يونيو ١٩٠٣م٠
(٢٦) نفسه ، العدد ١٢، ٥ يوليو ١٩٠٣م٠
(٢٧) ابراهيم فوزى، السودان بين يدى غردون وكتشنر، الجزء الأول، ص ٢٧٥٠
(٢٨) الفجر، العدد السادس عشر، أول فبراير ١٩٣٥م٠
(٢٩) أحد أدباء مصر، السودان المصرى والانجليزى، (الاسكندرية ١٨٩٦م)٠
(٣٠) جريدة السودان، العدد ٢، ١٧ أبريل ١٩٠٣م٠
(٣١) حسين منصور، الشاطئ الصخرى، (القاهرة )، ص ١٥٧٠
(٣٢) أنظر حسن نجيلة، ملامح من المجتمع السودانى ( الخرطوم ١٩٦٤)
(٣٣) محجوب محمد صالح، الصحافة السودانية، ص ١٨٦
(٣٤) الدرديرى محمد عثمان، مذكراتى: (الخرطوم بلا تاريخ) ص ١٠٣٠